المعجم اللغوي لشعر النقائض ودوره في إثراء اللغة العربية جرير والفرزدق أنموذجا

د. سويلم مختار بن موسى

اللغة هي الإنسان والمجتمع و الوطن، بل هي كيان الإنسان ووجوده و بدون هذه اللغة لا تظهر ثمرة العقل في حياته ويصبح والحيوانَ سواء؛ لا فرق بينهما لذا خاطب رب العزة. سبحانه تعالى. هذا الإنسان أينما كان في كثير من آي القرآن الكريم بقوله: " أفلا تعقلون " .١

واللغة واقع لا مجال للفرد في تغييره ولا إمكانية له في تبديله إلا إذا تواضع المجتمع على ذلك وتوافق، فهي نظام صارم يفرض نفسه على أتباعه، وعلى كلّ من سار في ركبهم وحَلب في إنائهم، وقد أثارت هذه الصرامة فضول البشر واستنهضت مكامن فكرهم، فاجتهد العلماء لإدراك أصل نشأة اللغة، وبحث الدارسون لفهم كيفية حدوثها فشرَق ثُلَّة منهم وغرّب كثير مثلهم، وجاؤوا بنظريات وآراء حول اللغة وقضاياها أبرزت مدى أهمية طرحهم، وأظهرت قيمة جهودهم؛ لكنها في الوقت نفسه كشفت أنهم لا يزالون يرتعون على شواطئ حقيقة أمرها(كنْهها)، ولم تبلغ دلاءُ أفهامهم أغوارَها بعدُ.

وقد كان لعلماء العرب نصيب كبير في هذا الجهد، وكانت بعض آرائهم. بالرغم من بساطة الوسائل. تضاهي آراء من خاض في علم اللغة في العصر الحديث؛ ومن هؤلاء ابن جني (ت٣٩٢ه) الذي عرّف اللغة في كتاب الخصائص بقوله: "أما حدّها فإنها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"٢ و الملاحظ أن هذا التعريف الدقيق يحيل إلى الكثير من الحقائق التي توصل إليها علم اللغة الحديث : فاللغة . كما يرى . أصواتٌ؛ أي شكل شفوي بالدرجة الأولى، وما الكتابة إلا مظهر تحضّر وتأنّق هذه اللغة بالرغم من أنها . أي الكتابة. لم تترجم ولم تفِ بجميع إمكانات الشكل الشفوي، ويراد بهذه الأصوات. بعد أن يتحقق التواصل طبعا. التعبير عن الحاجة، و الإعراب عن المراد في نطاق حيّز التفاهم . وبواسطة هذه الأصوات تتحقق الوظيفة الاجتماعية للغة، ولعل في قوله "يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم" تقريرٌ بأن اللغة كلٌّ متكاملٌ لا تنحصر كل مفرداتها في عقل شخص واحد، بل تتوزع في عقول جميع أفراد المجتمع اللغوي، وهو ما انتبه إليه دي سوسير . في العصر الحديث. حيث شبه " اللغة بالقاموس الذي يمثل في الأصل الذاكرة الجماعية لما يحتويه من علامات لا يطيق الفرد الواحد أن يختزنها في دماغه، وذلك بقوله: إن اللغة توجد على شكل مجموعة من البصمات المستودعة في دماغ كل عضو من أعضاء الجماعة على شكل معجم تقريبا، حيث تكون النسخ المتماثلة موزعة بين جميع الأفراد"٣

وإذا اعتبرنا اللغة كائنا ينمو ويتطور عبر الزمن، فإن ذلك النمو لا يحدث إلا بفضل استعمال المتكلمين لها، وذلك التطور لا يقع إلا عن طريق استغلال خصائصها من قبل الناطقين بها، مما يجعلها تحيا بحياتهم وتزدهر بازدهار فكرهم، كما تضعف بضعفهم وتنحط بتخلفهم عن ركب الحضارة. وقد لعبت اللغة العربية دور الريادة في نقل الميراث الإنساني من العلوم وأسهمت في إثراء المعارف المهمة بما تميزت به من اتساع في وعائها، ومقدرة مبهرة على الاستيعاب والتمدد ، حيث سادت جميع اللغات حينا من الدهر، وتبوّأت شرف التدريس بها والتعلم بواسطتها ردحا من الزمن.

وبالرغم من أن اللغة العربية حافظت على كيانها وخصوصيتها المتمثلة في نظامها النحوي والصرفي والبلاغي والصوتي إلا أنها كانت طيعة في الاستجابة إلى التحولات التي طرأت على المجتمع اللغوي جراء الانفتاح على الثقافات الوافدة والحضارات المنضوية تحت لواء الإسلام؛ إذ استطاعت أن تستوعب في أقل قدر من الزمن هذا القادم وتصهره في

بوتقتها ليصبح جزءا من كِيانها ويتشرف بالانتماء إلى حوزتها.

أما في زمننا فقد أضحت اللغة العربية تعاني أزمات تعاورتها من جهات عدّة، واجتمعت عوامل مختلفة تذْكي هذه الأزمة وتنفخ فيها، فهناك مِن أبناء العربية مَن يعيش معضلة حقيقية عند استخدامها سواء من جرّاء العجز أو من جرّاء الشعور بالنقص أمام انتشار لغات أخرى في عقر دارها، كما أن معجمها اللغوي يعاني التآكل والضياع بسبب العزوف عن الأصيل من اللفظ والصعب من المفردات في نظر الكثير ممن يستعمل العربية، لينساق نحو السهل المتوفر في اللهجة أو يوظف المصطلح الأجنبي لادّعاء خلوّ العربية منه لأنه مصطلح علمي مستحدث ، ولعل السبب في هذه الأزمة هم بعض أبناء هذه اللغة الذين هانت عندهم فأهانوها بمختلف تصرفاتهم وما وجود هذه الاشكالات واستمرارها إلا نتيجة طبيعية لضعف الوعي الاجتماعي والثقافي الوطني والقومي لعدد غير قليل من أبناء اللغة العربية٤.

لكن ألا يوجد ما يخفف من هذه الأزمة، ويعيد الوعي و ينعش الأمل؟ قد يكون الجواب في العودة إلى النصوص التراثية القديمة التي تفيض بيانا و تموج أصالة؛ فليس من الغريب أن عُدّ الشعر القديم نصًا حجة في الفصاحة، وأنموذجا يُحتذى به، وبه يُستشهد عند إشكال أمر من الأمور، فقد مثّل الوثيقة الرسمية التي حملت اللسان العربي الصحيح إلى نهاية القرن الرابع الهجري. ولنا في منهج الصحابي الجليل عبد الله بن العباس (ت٦٨ ه) رضي الله عنه عند تفسيره للقرآن الكريم أفضل مثال فيما يُعرف في الدرس اللغوي بمسائل ابن الأزرق.

ومع حلول عصر الدولة الأموية انفتح الخطاب الأدبي والخطاب الشعري بالخصوص على مواضيع ومجالات من الماضي؛ كانت من المحظورات كالسامري يُقال لها لا مساس، إنه شعر النقائض الذي يجيز للشاعر أن يَنقُض قصيدة منافسه ويهدم بناءها من الأساس ويبطل حججها ليبني من حطام هيكلها صرحا جديدا ينتقم به لكرامته ويُعجب الحضور في سوق المَرْبِد ليغيظ به خصمه.

ولعل هذا الخطاب الشعري سار في ركب السياسة في ذلك الوقت، فاستظل بظلها، وغُذّي من خيرها؛ وهي التي تبيح ما لا تبيحه الأعراف، وتسمح في سبيل الغاية بما لا تسمح به القيم؛ لذا عَرف فنُّ النقائض أعلامًا كُثرًا؛ اشتهر منهم ثلاثة؛ هم الأخطل النصراني، وجرير والفرزدق التميميان؛ الذين دارت بينهم وبالأحرى بين الأخطل والفرزدق من جهة، وجرير من جهة أخرى مساجلات أدبية ضروس، لا يعترض دفتر شروطها على شيء البتّة؛ حيث يُسمح فيها بضرب الخصم تحت الحزام، ويُباح أثناءها توظيف كلّ تعبير، واستعمالُ أيّ لفظٍ يُمكّن به تسجيل النقاط على المنافس وإسقاطه بالضربة القاضية.

لقد احتوى النص الشعري لنقائض جرير والفرزدق ذخيرة لغوية هامة؛ أغنت اللغة العربية بالمعاني وأثْرت معجمها اللغوي بالتعابير والألفاظ، لذا قال أهل اللغة: "لولا النقائض لضاع ثلثُ اللغة"، وقال غيرهم في الفرزدق الذي كان يملك اطلاعًا واسعًا على أيام العرب: "لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس"٥.

وعلى هذا الأساس؛ ستركز ورقتنا البحثية على مختلف التعابير والمفردات التي وردت في نص النقائض، لتهتمّ بها وصفًا ودلالة مع تقسيمها إلى حقولها الدلالية بحسب مجالات استعمالها: ألفاظ معاصرة دلالة، وألفاظ من ثقافات أخرى ، وحقل المشتقات، وحقل النّبات، وعالم الإبل، وفضاء البداوة، وحقل أسماء الأعلام.

ألفاظ معاصرة دلالة

ونقصد بها تلك الألفاظ التي عثرنا عليها في نصوص نقائض جرير والفرزدق؛ والتي وجدنا أنها تتقاطع شكلا مع ألفاظ مستعملة في المعجم اللغوي الحالي أي تتفقان في الدّال وتختلفان من حيث المدلول، لأجل ذلك سنعتمد في بعض الأحيان شروح أبي عبيدة التي ذيّل به نصوص النقائض وذلك أن شروحاته أوثق صلة بالمعنى المراد وأقرب إلى النص مما ورد في المعاجم.

ومن بين ما ورد ضمن هذا الحقل ما يلي:

السّفير،قال جرير:٦

ستَعلمُ ما يُغْنِي حُكيمٌ ومنقَعٌ

إذا الحرْبُ لم يَرجِع بِصُلحٍ سَفِيرُها

والسّفير في هذا البيت هو المصلح بين القوم، وقد يكون في المدلول المعاصر نصيب من هذا المعنى، فوجود سفير لتمثيل بلده في دولة ما؛ هو دليل في الغالب على حسن العلاقة بين الدولتين وصفاء الأجواء بينهما. فكما أن السّفير واسطة بين المتخاصمين عند العرب قديما، فإنه اليوم من منظور العلاقات الدولية واسطة بين الدولة التي يمثلها والدولة التي تستضيفه.

المُناضِل، قال الفرزدق:٧

و إنَّكَ قد تَركْتَ بَني كُلَيب
لكلِّ مُنَاضِلٍ غَرَضا مُصابا

والمناضل من ناضل مناضلة: باراه في الرّمي... والمناضَلة: المُفاخرة"٨، ونلمس تطور دلالة هذا اللفظ لينتقل من المباراة في الرمي إلى المباراة في الكلام والدفاع عن المبادئ والكفاح من أجل الحق.

الحُكُومَة: قال جرير:٩

فَاسأَلْ مَعاقِلَ بالمَدينَة عِنْدَهُمْ
نُورُ الحُكُومَة و القَضَاءُ المَقْنَعُ

والمقصود بالحكومة في هذا البيت: أي حُكم المحتكم إليه كأن يكون القاضي،" قال الأصمعي: أصل الحكومة ردّ الرجل عن الظّلم."١٠

القَنَابل، قال جرير:١١

وَ دَهْم كَجُنْح اللَيْلِ زُرنا به العدَى
لَهُ عَثْيَرٌ مِمَّا تُثيرُ قَنَابلُهْ

في هذا البيت، يصوّر جرير كثرة عدد أفراد الجيش، وقَنابله: جماعة خيله، الواحدة قَنْبَلَةٌ وهو ما بين الخمسين من الخيل إلى السّتّين. ويلاحظ أن هذا اللفظ يشترك مع المدلول المعاصر في الدلالة على شدة القوّة ووسيلة التأثير: قوة التحام الجماعة، وقوة التفجير.

الأعْدَاد، قال جرير:١٢

فَأَوْرَدَكَ الأَعْدَاد و الماءُ نَازِحٌ
دَليلُ امْرئٍ أَعْطى المَقَادَةَ بالدَحْلِ

وواحد الأعدَاد عِدٌّ: وهو الماء القديم.

القطار، قال جرير:١٣

لَهُمْ أُذُرٌ تُصَوّتُ في خُصاهُم
كَتَصْويتِ الجَلاجِلِ في القِطارِ

ويعني هنا قِطار الإبل، فعدد منها بعضه خلف بعض. و لا يخفى على عاقل الآن سرُّ تسمية إحدى وسائل النقل الحديثة بهذا الاسم.

وممّا ورد كذلك من ألفاظ ضمن هذا الحقل لفظة " الشَّعْب"١٤؛ والشّعب هنا الحيّ، و"الحيُّ من أحياء العرب يقع على بني أبٍ كثُروا أم قَلُّوا"١٥، ويلاحظ اتساع مدلول هذه اللفظة في الوقت الحالي لتدل على بني وطن واحد كثروا أم قلوا. ونجد لفظ "الحَرَفُ"١٦، والحَرف صفة للناقة التي انحرفت عن حالها إلى الهزال. ولفظ " جَامعة "١٧ في قول جرير مفتخرًا بكرم قبيلته، والجامعة: يعني بها اجتماع الناس على القِدر، فالقدر سميت جامعة لأجل ذلك، وجاء في اللسان" وقِدرٌ جِماع وجامعة: عظيمة، وقيل: هي التي تجمع الجَزُور."١٨

كما نجد أيضا لفظة "الجُرْثُومَة"١٩، والجرثومة: تراب تجمعه الريح في أصل شجرة فيرتفع على ما حوله، وقد يلاحظ القارئ علاقة الريح والارتفاع والإحاطة بالمدلول المعاصر للفظة الجراثيم. ومن هذه الألفاظ لفظ " النَّوْر "٢٠ والمراد به مُجمع الماء ولفظ "النِّطاف "٢١ ويُراد به الماء ، وجاء في اللسان: " والنطفة والنُّطافَة: القليل من الماء، وقيل: الماء القليل يبقى في القِربة[...] وقيل: هي الماء الصافي، قلَّ أو كثر، والجمع نُطَف ونِطاف، وقد فرق الجوهري بين هذين اللفظين في الجمع، فقال: النّطفة الماء الصافي والجمع النِّطاف، والنُّطفة ماء الرجل والجمع نُطف" ٢٢

ألفاظ من ثقافات أخرى:

لم تغب ثقافة بعض الشعوب وما يعبّر عنها من ألفاظ عن استعمالات الشاعرين في نصوص النقائض وغيرها ، مما يؤكد تأثير العربية وتأثرها بلغات الشعوب التي كان احتكاكها بالعرب منطقيا بحكم الجوار أو الاتّجار، ومن مظاهر هذا الاحتكاك انتقال ألفاظ بحمولتها الاجتماعية من بيئتها الأولى إلى الثقافة العربية؛ بحيث أضافت لبنة جديدة في صرح اللغة وأغنت معجمها ومن ذلك قول جرير في وصف أطلال الأحبة وهي موحشة:٢٣

يمشي بها البقر المُوشيُّ أكْرُعه
مَشيَ الهرابذ حجّوا بَيعةَ الزُّون

والهَرَابذ هم عظماء الهنود، وأصحاب بيوت النار، و الزّون: هو الصنم، فهذا التصوير يوحي بأن جريرا يملك ثقافة عن المجوسية والبوذية ولعلها وصلت إليه عبر تثاقف الشعوب.

ويوظف جرير لفظا آخر له علائق مع دوال في المعجم اللغوي للفارسية فيقول:٢٤

إنّ الفرزدقَ والبَعيثَ و أُمَّهُ و
أَبا البعيثِ لَشَرُّ ما إسْتارِ

فقد هجا الشاعر أربعة أشخاص في هذا البيت وهو ما يدل عليه لفظ "إسْتار " لأن الإستار: وزن أربعة فهم أربعة، وهم شرٌّ كلّهم، وأراد بالإستار جِهَار بالفارسية. ومما جاء بخصوص هذا اللفظ في اللسان، " قال الأزهري: وهذا الوزن الذي يُقال له الإستار مُعرَّب أيضا، أصله جِهارٌ، فأُعْرِبَ فقيل إسْتار".٢٥

ومن الألفاظ التي فرضت وجودها كثيرا في خطاب الشاعرين نجد لفظة " الماخُور" التي تعني بيت الخمَّار وما يحدث فيها من لهو ومجون، وقد تردّد هذا اللفظ في شعر جرير أكثر من غريمه٢٦، ومنها قوله موجها خطابه إلى الفرزدق: ٢٧

تَتَبَّع في المَاخُور كُلَّ مُرِيبَة
و لَسْتَ بِأَهلِ المُحْصناتِ الكَرائِمِ

والمواخِر: واحدها ماخور، وهو بيت الخمّار، وهو بيت الفسق بالنَّبطية فَعُرِّب.

ويستعمل جرير في مناسبة أخرى لفظًا من الثقافة الفارسية لإغاظة خصمه الفرزدق؛ الذي لبس ثيابَ وَشْيٍّ وسوارا، بينما لبس جرير درعا وسلاحا تامًّا فقال عند ذلك: ٢٨

لَبِسْتُ أَداتِي و الفَرَزْدقُ لُعْبَةٌ
عليه وشَاحَا كُرَّج و جَلاجِلُه

و"الكُرَّج: الذي يُلعب به، والكرَّج فارسي مُعرَّب، وهو بالفارسي كَرَهْ "٢٩

وكأنّي بالفرزدق يرد الازدراء بمثله عندما يقول:٣٠

و ابْنُ المراغة قد تَحَوَّلَ راهِبًا
مُتَبَرْنِسًا لِتَمَسْكُن وسُؤال

أي صار يلبس البُرْنُسَ كما يلبس الرُّهبان أي تنصر ليأخذ منهم شيئا.

حقل المشتقات:

كانت الضرورة ملحة إلى اعتماد الشاعر الاشتقاق وإحياء الألفاظ سداً لحاجة المناقضة والملاحاة، وهو ما تكشفه مجموعة من الألفاظ ميزتُها أنها خرجتْ من رحم عقيم في العادة، وهو ما يكشف مقدرة الشاعر على ترويض ما جمح منها، ومن ذلك قول الفرزدق:٣١

يَغورُ بأَعْناقِها الغائرون
وَ يَخْبِطْنَ نَجْدًا مَعَ المُنْجِد

الغائرون أي الذاهبون إلى الغَوْر (تهامة)، أما المُنْجِد، يعني به الرجل السّائر إلى نَجْد، فالشاعر استغل إمكانات اللغة الصرفية ليشتق مما لا يُشتق منه عادةً. وعلى منوال الفرزدق اشتقاقا ومعنًى يقول جرير:٣٢

أُحِبُّ ثَرَى نَجْدٍ وبالغَوْرِ حاجَةٌ
فَغَارَ الهَوَى يا عَبْدَ قَيْسٍ و أَنْجَدا

فقد اختار الشاعر اشتقاق الفعلين "غَار " و" أَنْجد " مع الالتزام بذكر اللفظ المشتق منه (الغَوْر/ نَجْد) في البيت للفْت انتباه المتلقي لفهم هذا الانحراف، وتوجيهه نحو المعنى المقصود، وهو ما التزمه أيضا الفرزدق في البيت السابق.

ويصف الفرزدق في مطلع غزلي طويل من يهوى بقوله:٣٣

دَعَوْنَ بِقُضبانِ الأَراكِ التي جَنَى
لها الرَّكبُ من نَعْمانَ أَيامَ عَرَّفُوا
فَمِحْنَ به عَذْبًا رُضابًا غُرُوبُه
رِقَاقٌ و أَعْلى حيثُ رُكِّبْنَ أَعْجَفُ

وقوله" عرّفوا " :أتوا عَرفات، أي أتوها حين حَجّوا بهذه القضبان وهي المساويك. فقد سمح الشاعر لنفسه باشتقاق فعل ماض من اسم " عرفات " ليدل على وقوفهم في هذا المشعر، إلاّ أنه لولا قرينة " أيّام " لما أمكن فهم مراد الشاعر.

ويفخر جرير بصنيع قبيلته حين يقول:٣٤

ولا يَسْتوي عَقْرُ الكَزُومِ بِصَوْعِر
و ذُو التَّاجِ تَحتَ الرّايَةِ المُتَسَيِّف

والمُتَسَيِّف اسم فاعل؛ كما أنها تُحمل كذلك على اسم المفعول المُتَسَيَّف، أي أن قوم الشاعر يقتلون الأبطال وغيرهم منشغلون بعقر الإبل، ويلاحظ أن هذا الاشتقاق غير المنتظر قدّم لجرير خدمة جليلة أسهمت في تعميم المعنى وإمكان قراءته من أكثر من زاوية دون وقوع خلل، وذلك أن قوم جرير لشجاعتهم يقتلون أبطالا مدججين بالسلاح(المُتَسَيِّف)، ويقتلونهم تحت راياتهم إذلالاً لَهم(المُتَسَيَّف).

ولا يقتصر تنقير الشاعرين في مجال الاشتقاق على ما ذُكر، بل كان لهما سعي في غير ذلك كاشتقاق لفظ التّرْبيق من الرّبْق، والتّرْبيق: هو ربط البهيمة في الرّبق، والرّبق حبل ممدود في وَتِدَين وفيه حبال قِصار تُشَدُّ بها الغنم٣٥ ، وقد استعمله الفرزدق في سياق الازدراء من قوم جرير، وهو ما يناسب الخضوع والذلّ. ومنها لفظ "أَتسهَّل" : مُشتقة من السَّهل وما سَهُل من الأرض٣٦، ومنها لفظة " مُتَبَرْنِس " مشتقة من البُرنس؛ وقد مضى ذكرها سابقا، كما نجد في النقائض لفظة "سَمَّال" نسبة لبني سُليم، و الأزأنيَّ وهي الرماح التي نسبَتْ إلى ذي يَزن.٣٧

فضاء البداوة:

ونقصد به كل ما ارتبط بعالم البداوة من تنوع لأسماء مواضع الأرض حسب حالاتها، وما تحمله من مظاهر الطبيعة، وما يمارسه البدو عليها من نشاط، ومن تلك الألفاظ، الهَذَاليل، و الهَذَاليل ج هُذْلول: وهو ما استدقّ من الرمل وطال، وكأن السّرّ في الدلالة على هذا المعنى يكمن في استطالة اللسان عند النطق بالمقطع الأول من الكلمة. يقول جرير في وصف ديار:٣٨

كَأَنَّ ديارًا بينَ أَسْنُمَةِ النَّقَا
وَ بينَ هَذَاليلِ النَّحيزَةِ مُصْحَفُ

فمرأى خيام بين كثبان الرمال (النقا والهذاليل) تشبهُ حالة مصحف مفتوح. و يوظف الفرزدق اللفظ ذاته عندما يقول:٣٩

و ما زِلتُ أُزْجِي الطَّرْفَ من حيثُ يَمَّمَتْ
من الأرض حَتَّى رَدَّ عَيْنِي حَسِيرُها
فَرَدَّ عَلَيَّ العَينَ وَ هْيَ مَريضَةٌ
هَذاليلُ بَطْنِ الرَّاحَتَينِ و قُورُها

و قوله: وقُورها: واحدة القُور قارةٌ، وهي جبال صِغار ، و هذا اللفظ بهذا المعنى ما يزال يُستعمل ضمن لهجات قبائل بني هلال وبني سُليم وبالخصوص الشَّعانبة٤٠ منهم بالجنوب الجزائري.

ومن ذلك أيضًا لفظتا "الهَجْل" و " القرارة " ، يقول جرير عن مغامرة عاطفية:٤١

طلبْتُ وَ رَيعانُ الشَّبَاب يَقُودُني
وقدْ فُتْنَ عَيْنِي أو تَوارَينَ بالهَجْلِ
فلما لَحقْناهنَّ أَبدَينَ صَبْوَةً
وهُنَّ يُحاذِرْنَ الغَيورَ منَ الأهْلِ

و الهَجْل: البطن المطمَئنّة من الأرض، ويقول جرير مفحشًا في حق جِعثن أخت الفرزدق:٤٢

أَ هُلْبَ أُسْتها فَقْعًا بشَرّ قَرارَة
بِمَدْرَجَةِ بَينَ الحُزونَة والسَّهْلِ

والقَرَارة هي الموضع المطمئن يجتمع فيه الماء، ولعله السّرُّ في تسمية أكثر من مدينة بهذا الاسم في الوطن العربي؛ على غِرار مدينة القرارة بغزة فلسطين، ومثيلتها بالجنوب الجزائري. أما معنى الحُزونَ فهو ما غَلُظ من الأرض.

ويعبر جرير عمّا وجده من عناء شديد في إحدى رحلاته عندما يقول:٤٣

لَدَى قَطَرِيَّات إذا ما تَغَوَّلَتْ
بنا البِيدُ غاوَلْنَ الحُزُومَ القَياقِيا

والحُزوم: جماعة حزم، وهو ما أشرف من الأرض وغَلُظ، وقد ينبئ اشتراك اللفظتين الحُزونَ و الحُزوم في هذه الدلالة (على ما غلظ من الأرض) أن الذي أدّى شيئا منها هما الصوتان (الحاء) و(الزّاي) ، أما القَياقِي: الواحدة قِيقاةٌ وهي أرض صُلبة. وليس من الصعب إدراك مصدر تلك الدلالة التي نحسبها تكمن على الأقل في تكرار صوت القاف بما يتميّز به من شدّة في المقطع الأول وفي الأخير. . ومما جاء من ألفاظ ضمن هذا الحقل، لفظ "الوَعْث": وهو الموضع الكثير الرمل، و" الخَبَار": وهي الأرض الكثيرة جحَرة الفأر وغيرها، ومنه أيضا لفظة " وَبَار"، فيقال: "طريق وَبار" أي أرضٌ ورمالٌ غلب عليها الجنّ فهي لا تُسلك،٤٤. ولعل ما يميز هذه الألفاظ اشتراكها في الدلالة على الشدة والصعاب والعراقيل وهو ما يتناسب مع معاناة الشاعر أثناء رحلته وما يلقاه في سفره من أجل تحقيق أمنيته في النوال.

ويبدع الفرزدق في رسم صورة قاتمة لجفاف الأرض وقلة المطر بقوله:٤٥

إذا اغْبَرَّ آفَاقُ السَّماءِ و كَشَّفَتْ
كُسورَ بُيوتِ الحَيِّ حَمراءُ حَرْجَفُ

والحَرْجَف: الرّيح الشديدة الهبوب، وهي في مقاييس اللغة" الريح الباردة"٤٦، فهبوب هذه الريح أثارت تربة الأرض الجافة واغبرّ أفق السماء. و هذه الحال مما يُحرج أصحاب البادية، ويحرمهم الحركة. و مما اعتاد الفرزدق أن يعيِّر به يربوع قوم جرير؛ شربهم المنيّ فيقول في ذلك:٤٧

وَ لَئِنْ حَبِلْتَ لَقدْ شَرِبتَ رَثِيئَةً
ما باتَ يَجعَلُ في الوَليدَة نَبْتَلُ

والرّثيئة : اللبن الحامض يُحلب عليه الحليب وهو أطيب اللبن عند العرب، و في مقاييس اللغة" أَرْثَأَ اللبن: خَثُر، والاسم الرّثيئة. قالوا في أمثالهم : إن الرثيئة مما يُطْفئ الغضب"٤٨ ، كما يرد ذكر "الخَزِير"٤٩ :دقيق يلبك بشحم، والعرب تُغَيِّر به٥٠، ويشترك هذان اللفظان في الدلالة على الازدراء والاحتقار؛ وذلك أن " الرّثيئة " بالرغم من قيمته عند العرب إلا أنه بالنسبة لقوم جرير يُذكر بالخِزي والعار.

هذا الاهتمام بهذه الألفاظ ومثيلاتها ينم عن عبقرية الإحساس وشدة التفاعل والتمازج بين شاعر النقائض وبيئته واستجابته لإكراهاتها ،وهو ما أسهم في الحفاظ على هذا المعجم البدوي الذي بدأ يتلاشى من استعمال الناس في ذلك الوقت بحكم استيطانهم للمدن ونشوء حواضر عديدة جلبت إليها البدو بغية الاستقرار وبحثا عن لقمة العيش التي تهدَّدَتْها عوامل الطبيعة.

حقل النبات:

تحاصر الصحراء مواطن الكلأ ومنابع المياه لتجعل منها قِبلة البدو ومحجّتهم؛ يصارعون ظروف الحياة الصعبة من أجل البقاء، ويكافحون قساوة الطبيعة من أجل الاستمرار، لذا يتأثر البدويّ بندرة النبات ويتعكّر مزاجه عند شحّ المياه، لا تغيب هذه الظروف عن ذهن الشاعر الذي يواجه ذلك كله ويسعى إلى التأقلم معه.

إن حضور النبات بالرغم من قلته ضِمنَ تجربة الشاعرين؛ يُعدّ مظهرًا لافتًا يستحق من الدارس التوقف عنده، وذلك أن طبيعة البيئة الصحراوية القاسية تُلغي من الذهن كلّ تصور للخضرة والاخضرار عدا ما تقتات به الإبل من نبْتٍ أو شيء من سدر قليل. ومن هذا القليل قول جرير:٥١

أَقُولُ لَهُ يا عَبدَ قيسٍ صَبَابَةً
بِأَيٍّ تَرَى مُسْتَوْقِدَ النّارِ أَوْقَدا
فقال أَرَى نَارًا يُشَبُّ وَقُودُها
بِحيثُ اسْتَفاضَ الجِزْعُ شيحًا وغَرقدا

فالشِّيح نبت صحراوي معروف، والغَرْقد: شجر تدوم خضرته الشتاء والصيف، وكلاهما من الشيح والغرقد يتحملان نقص المياه. ويوظف الفرزدق نبتًا في سياق ازدرائه بقوم جرير فيقول:٥٢

و قالوا لنا زيدُوا عَلَيهِمْ فَإنَّهُم
لَفاءٌ و إنْ كانُوا ثَغَامَ اللّهازِم

فقد شبّه الشاعر بياض الشيب على اللهازم بنبات الثّغام، وهو شجر إذا يَبس ابْيضّ، وكأني بالفرزدق قد أراد معنيين باستعمال هذا اللفظ، فهؤلاء قد هرموا حتى شابت لهازمهم من جهة، ومن جهة أخرى يَبس عودهم وهانوا لدى الناس. ويقول جرير في السياق ذاته:٥٣

كان الفرزدقُ إذْ يَعودُ بخاله
مِثْلُ الذّليلِ يَعودُ تَحْتَ القَرْمَلِ

لم يكتف جريرٌ بإهانة غريمه الفرزدق واصفًا إياه بالذليل؛ إنما بالغ في إهانته إلى حدٍّ اعتباره شخصًا خنوعًا يستجير بمن هو أضعف منه، فيخضع لرحمته، فالفرزدق العاجز يأوي إلى من هو أضعف منه. وفي المثل" ذليلٌ عاذ بقَرملة"، والقَرْمل؛ شجر ضعيف لا شَوك له.

ومما جاء في هذا الحقل من ألفاظ النبات أيضًا، الهَرْمُ؛ وهو نبات قصير معمر يفترش الأرض، كما نجد لفظة السَّلَع؛ وهو شجر خبيث الطّعم مُرُّ المذاق. و ما يُلاحظ في هذه الألفاظ الخاصة بالنبات اشتراكها في الدلالة على الضعف، وهو ما يناسب نصوص النقائض التي تبنى على الهجاء وذمّ الآخر.

عالم الإبل:

إن امتلاك الشاعر القديم لناقة قوية يزيد الذات قوةً ويملأ النفس اعتزازًا؛٥٤ فالناقة رمز الوفاء وسبيل التحرر؛ فكم هي المناسبات الكثيرة التي اتّخذ فيها الشاعر ناقته وسادًا عوض السوار والمعصم،٥٥ واستأنس بها في وحدته أثناء تنقّله في الفيافي والقفار، وهي سبيل الوَصْل وأداته، ولكنها في الوقت ذاته وسيلة البين والفراق، لذا قال أبو الشيص: ٥٦

ما فرّقَ الأَلّافَ بعد الله إلاّ الإبلُ
وما غُرابُ البينِ إلاّ ناقةٌ أو جملُ

هذا الارتباط الوثيق بين الشاعر وناقته أو جَمله أنتج حضورا متميزا لهذه الراحلة في نصوص الشاعرين تماما كحضور هذا الحيوان في واقع الحياة وعدم استغناء أهل البادية عنه. وقد تجسّد ذلك في الاهتمام بمختلف وضعيات الإبل أثناء حركتها وهي هائمة في البوادي وصائلة في القفار، كما تمثل في تسجيل أحوالها وهي في مضاربها، وضروب مشيتها عند تنقلها. ومن ذلك قول جرير ساردا مغامرة العودة من رحلة لم تُكلل بالنجاح:٥٧

يَقولُ لِيَ الأَصْحابُ هلْ أنتَ لاحقٌ
بأَهلكَ إنَّ الزَّاهريَّةَ لا هيا
لَحِقْتُ و أصحَابي على كُلِّ حُرَّةٍ
وَخُودٍ تُبَارِي الأَحْبَشِيَّ المُكاريا

والمُكاري؛ هو الجمل الذي يكرو في مشيته، أي يشب وثبا، وحُرّة: ناقة كريمة، وَخُود: يعني أنها تَخِد في مشيها، وهو ضرب من السير، و يقول:٥٨

لَدَى قَطَرِيّاتٍ إذا ما تَغَوَّلَتْ
بنا البَيدُ غاوَلْنَ الحُزُومَ القَياقيا

و"قَطَرِيّات: إبل منسوبة إلى قطر، وهي أرض بالبحرين ، ومما جاء في وصف الإبل كذلك، لفظة "الأَطْلاح": وهي الإبل المُعيِّية قد بلاّها السّفر، ولفظة "الحَرْف"، والحَرف صفة للناقة التي انحرفت عن حالها إلى الهزال، و" النّيب" هي الإبل المسنة، أما إذا كانت ناقة فتسمّى" الكُزوم "، وإذا ما كانت سريعة خفيفة فيُستعمل لفظ " شِملال" ، ليُقال: ناقة شِملال.٥٩ ومما نلحظه بخصوص ألفاظ هذا الحقل؛ هو اشتراكها في الدلالة على الصلابة والنشاط من جهة، ومن جهة أخرى على الضعف بعد القوّة وهو ترجمة لحالة الاستعطاف التي ترافق النسيب في موضعه، وتترجم مظاهر الشّدّة والبأس للتأثير في نفسية المتلقي خصمًا كان أم مستمعًا.

أسماء الأعلام:

كثيرة أسماء الأعلام التي وردت في نصوص النقائض ولعل هذا الاستعمال يكشف منطلقات الشاعر عندما ينظم قصيدة أو يَحوك نقيضة، وذلك أن طبيعة النقائض مبنية على التحدّي والمجابهة، حيث يُجبر الشاعر الثاني على الرّد اعتمادا على ما جاء في قصيدة الشاعر الأول عن طريق إفراغ معاني الفخر التي نسبها الخصم إلى نفسه وقبيلته، وقلب هجائه المرّ وردّه عليه.

لقد كان الشاعر في حاجة إلى التنقيب في تاريخ أيام العرب، لينقح منها ما يحاجج به خصمه، كما كان مضطرا إلى البحث في الأنساب والاطلاع على مداخل هذا العلم عساه يجد ما يطعن به غريمه من هذا الباب، فقد كانت من المغامز التي يهاجم بها الشعراء خصومهم : فيشككون في نسبهم ، وينفون خصومهم عن قبائلهم ، وقد يلحقونهم بها لكن على اعتبار أنهم أتباع لها أو أدعياء فيها، أو أن مكانتهم لا تتجاوز مستوى السقَط الذي لا شأن له.

ولعل هذا التوسع المعرفي الذي تفرضه النقائض على مرتادها يكشف سرّ صمود الفرزدق أمام جرير صاحب اللسان السليط كلّ هذه المدّة، بينما خبت أصوات غيره من الشعراء وتلاشت قواهم، وعجزوا عن مجابهة ابن الخطفى الذي انماز بالهجاء و عُرف بالغزل؛ إذ كان لا يملك أمجادًا ومآثرَ تُذكر، بخلاف الفرزدق الذي كان يتوفر على أسباب الفخر وموجباته، ذلك أن شرف آبائه وأجداده قد مهّد له سبيل القول بالفخر، والتطاول على جرير وتحديه في هذا الباب بقوله:٦٠

أولئكَ آبائي فجئني بمثلهم

إذا جمعتْنا يا جريرُ المجامعُ

وتتوفر النقائض على كَمّ معتبر من أسماء الأعلام الشخصية؛ والتي ستكون محور اهتمامنا التي تكرّر ذكرها لما لها من علائق بأحداث واقعية أو مختلقة ساقها كل شاعر ليحاجج بها خصمه ويذود بها عن حماه. ومن بين هذه الأسماء لدى جرير نجد: جُبير وهو عَبْد قينٌ(حدّاد) كان لصعصعة بن ناجية، و صَعْصَعة بن ناجية التميمي؛ جدّ الفرزدق الذي اشتهر بافتداء الإناث من الوأد، و نَوار بنت أَعْين زوج الفرزدق، و جِعْثِن أخت الفرزدق التي أفحش جرير في حقها باختلاق حادثة اغتصابها، و قُفيرَة أمّ صعصعة بن ناجية، و ليلى، جدة الفرزدق، وهي أمّ غالب بن صعصعة، ودَارِم الجدّ البعيد للفرزدق، و الزّبير، ويقصد به سيدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه وقد دأب جرير يُعيّر الفرزدق بإخْفار النَّعِر بن الزَّمّام للزبير رضي الله عنه وقد استجارهُ فَقُتل في جواره. كما جاء على ذكر أُمَامة و خَالِدة في مطالعه الغزلية. أما بالنسبة للفرزدق فقد تردّدت أسماء آبائه وأجداد في فخره ك : غَالِب و مُجاشِع و دارِم وصَعْصعةَ، أما بخصوص هجائه لجرير فقد ركّز على اسم عطيّة، وهو عطية الخطفى والد جرير؛ الذي وصفه في غير موضع براعي الحمير. و ابن المراغة كنية جرير، وبني كُليب قومه. تكشف هذه الورقة البحثية ونحن في ختامها الثراء اللغوي لنقائض جرير والفرزدق، واكتنازها ثروة دسمة من المعاني والصور التي فرضتها طبيعة النقيضة، فليس من الغريب أن تُعدّ هذه النصوص مرجعًا مُفيدًا، وطريقًا مختصرًا لكل باحث يريد دراسة المعجم اللغوي في العصر الجاهلي لما يلاحظ من ارتباط وثيق بين لغة العصرين الجاهلي والأموي. لقد مثلت نصوص النقائض معينا لا ينضب من الألفاظ، وموردا لا ينزح من المعاني في شتى المجالات، حيث اكتشفنا ألفاظا معاصرة تطورت دلالتها لتُفضي إلى معانٍ جديدة في عصرنا كلفظة "القطار"، كما أن المعجم اللغوي للنقائض مكننا من تقسيمه إلى حقول دلالية مختلفة لم نأتِ على جميعها في هذا المداخلة؛ فإذا كنا قد تطرقنا إلى حقول دلالية من مثل: فضاء البداوة وعالم الإبل، وحقل النبات؛ والتي لا ندَّعي أنّنا استوفينا دراستها؛ فإن عوالم أخرى ما زالت بِكرًا تُغرينا بالبحث فيها ؛ على غرارِ حقل الأنواء، وعالم الحيوان وغيرهما.

توصيات:

ولما لهذه النصوص التراثية من قيمة لغوية وأدبية و تاريخية؛ فإنه من الواجب على الهيئات المسؤولة عن العملية التعليمية في مختلف أقطار الوطن العربي اعتمادُ مدونات معينة من هذا الغرض في برامج تعليمية اللغة وفي دراسة النصوص الأدبية ضمن مرحلة ما قبل الجامعة (الثانوي في الجزائر)و مرحلة التدرج الجامعي. كما يُمكن توجيه الطلبة إلى انجاز بحوث صفية، ومذكرات التخرج حول موضوعات هذه النصوص ولغتها. وقد" ذكر المبرّد في كتاب " الكامل " أن معاوية بن أبي سفيان الأموي [رضي الله عنهما] قال: اجْعلوا الشّعر أكبر همّكم، وأكثر آدابكم، فإن فيه مآثر أسلافكم، ومواضع إرشادكم"٦١

وما دُمنا في عصرٍ سيطرت فيه تكنولوجيا الاتصال على مناحيه فإنه بالإمكان استغلال الوسائط الاعلامية الحديثة من أجل إيصال هذه النصوص إلى الطلبة والمتعلمين عن طريق التخطيط لمسابقات ثقافية تربوية هادفة تُعنَى بحفظ هذه النصوص ومفرداتها، والتنافس في استغلال مضامينها السردية، والتاريخية ضمن مشروع إحياء التراث العربي، والعناية به لربط الناشئة بماضيهم وتحبيب اللغة العربية إليهم. ومن التجارب الشخصية التي تنحو هذا المنحى التخطيط لمشروع بحث يشارك فيه الطلبة يقوم على استقراء المدونة الشعرية للعصر الأموي ورصد ما تتضمنه من ألفاظ تتصل بعالم البادية ومحاولة تأصيل مكونات المعجم اللغوي لقبيلة الشعانبة (إحدى فروع بني سليم) في الجنوب الجزائري بهذا الخصوص، بحيث يضمن الطالب التأثيل للألفاظ العامية من جهة، ومن جهة أخرى الاطلاع على ما جاء في تلك المدونة من ثروة معجمية، ورصيد لغوي ما يزال قادرا على العطاء والتفاعل الحضاري والثقافي.

الهوامش

١ ـ وردت في ١٣ موضعًا، منها على سبيل المثال لا الحصر الآيات: ٧٦/٤٤ من سورة البقرة، و٦٥ من سورة آل عمران، و٣٢ من سورة الأنعام.

٢ ـ الخصائص، ابن جني، تح: محمد علي النجار ، طبعة عالم الكتب، ج١، ص٣٣.

٣ ـ اللسانيات النشأة والتطور، أحمد مومن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر/ ديسمبر٢٠١٢، ص١٣٢.

٤ ـ ينظر : مجلة التراث العربي، حسين جمعة، اللغة العربية إرث متصل، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ربيع الاخر ١٤٢٩هـ ـ آذار٢٠٠٨م، السنة ٢٨/ العدد ١٠٩، ٧٣.

٥ ـ تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، طبعة دار الهلال، ج٣، ص١٠٢.

٦ ـ ديوان النقائض، نقائض جرير والفرزدق، أبو عبيدة معمر بن المُثنى، دار صادر، بيروت، ط١/١٩٩٨م، مج١، ص١٤.

٧ ـ نفسه، ص٣٩١.

٨ ـ لسان العرب، ابن منظور، تح: عبد علي الكبير وآخرون، طبعة دار المعارف، مصر، مج٢، مادة (نضل)، ص٤٤٥٧.

٩ ـ ديوان النقائض، مج٢، ص٣١٧.

١٠ ـ لسان العرب، مج٢، مادة (حكم)، ص٩٥٢.

١١ ـ ديوان النقائض، مج٢، ص٧٩.

١٢ ـ نفسه، مج١، ص١٤٨.

١٣ ـ نفسه، ص٢١٦.

١٤ ـ نفسه، ص١٥٥.

١٥ ـ لسان العرب، مادة (حيا)، مج٢، ص١٠٧٨.

١٦ ـ ديوان النقائض، مج١، ص٣٩٦.

١٧ ـ نفسه، ص٤١٦.

١٨ ـ لسان العرب، مج٢، مادة (جمع)، ص٦٨١.

١٩ ـ ديوان النقائض، مج١، ص١٦٦.

٢٠ ـ نفسه، ص٤٢٤.

٢١ ـ نفسه، ص٤١٤.

٢٢ ـ لسان العرب، مج٢، مادة (نطف)، ص٤٤٦١،

٢٣ ـ ديوان جرير، ص٥٥٧.

٢٤ ـ ديوان النقائض، مج٢، ص٢٨٤.

٢٥ لسان العرب، مج٢، مادة (ستر)، ص١٩٣٥.

٢٦ ـ ينظر: ديوان النقائض، مج١، ص٢٧٤ / وص٤٤٤ ، ومج٢، ص٣٥.

٢٧ ـ نفسه، مج١، ص٣٣١.

٢٨ ـ نفسه، مج٢، ص٨٠.

٢٩ ـ لسان العرب، مج٢، مادة (كرج)، ص٣٨٤٩.

٣٠ ـ ديوان النقائض، مج١، ص٢٣٩.

٣١ ـ نفسه، ج٢، ص١٩٠.

٣٢ ـ نفسه، مج١، ص٣٩٧.

٣٣ ـ نفسه، مج٢، ص٠٨.

٣٤ ـ نفسه، ص٢٧.

٣٥ ـ نفسه، مج١، ص١٥٣.

٣٦ ـ نفسه، ص١٦٨.

٣٧ ـ نفسه، مج١، ص٢٤٠، ومج٢، ص١٧ على الترتيب.

٣٨ ـ نفسه، مج٢، ص٢٦.

٣٩ ـ نفسه، مج١، ص٤٢٥.

٤٠ ـ الشعانبة إحدى أكبر قبائل بني سُليم العربية في المغرب العربي ولاسيما في الجزائر.

٤١ ـ ديوان النقائض، مج١، ص١٤٤.

٤٢ ـ نفسه، مج١، ص١٤٦.

٤٣ ـ نفسه، ص١٥٦.

٤٤ ـ ينظر: ديوان النقائض مج١، ص٢١٥، وص٢٨١، على الترتيب.

٤٥ ـ نفسه، مج٢، ص١٤.

٤٦ ـ مقاييس اللغة، ابن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، ج٢، ص١٤٧.

٤٧ ـ ديوان النقائض، مج١، ص١٨١، وانظر تفصيل هذه الحادثة في هامش الصفحة.

٤٨ ـ مقاييس اللغة، ج٢، مادة (رثأ)، ص٤٨٨،

٤٩ ـ ديوان النقائض، مج١، ص١١٤.

٥٠ ـ مقاييس اللغة، ج٢، ص١٨٠.

٥١ ـ ديوان النقائض، مج١، ص٣٩٧.

٥٢ ـ نفسه، ص٣٢١.

٥٣ ـ نفسه، ص١٩٧.

٥٤ ـ ينظر: الشعر العربي القديم (أسس الشعر العربي الكلاسيكي)، إيفالد فاجنر، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر، ط٢/١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م، ص١٥٥.

٥٥ ـ ينظر ديوان النقائض،ج١، ص٦٥.

٥٦ـ ينظر: ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تح: محمد عزام، دار المعارف، مصر، ط٥ (د ت)، مج٢، ص١١ (الهامش).

٥٧ ـ ديوان النقائض: مج١، ص١٥٦.

٥٨ ـ نفسه، ص١٥٦.

٥٩ ـ نفسه، ص٢٩٣، وص٣٩٦، و ص٢١٨، وص١٥٨، وص٢٥١ على الترتيب.

٦٠ ـ نفسه، مج٢، ص١١٧.

٦١ ـ تاريخ التمدن الإسلامي، مرجع سابق، ج٣، ص١١٩.